بين مفهوم المعجزة وإعجاز القرآن

:: نظرات نقدية ::

د. عدنان محمد زرزور

أستاذ ورئيس قسم أصول الدين

جامعة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم ،الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحابته أجمعين، وبعد:

أولاً : تعريف المعجزة وصفاتها

لابد من بيان الفروق بين آيات الأنبياء السابقين أو أدلتهم وبراهينهم على نبوتهم وإعجاز القرآن، وذلك من أجل الوقوف على المسافة التي تفصل بين «المعجزة» كما دعيت -أو آيات الأنبياء بعبارة أدق- وإعجاز القرآن. ومن ثم: معرفة مدى التجاوز الذي وقع فيه علماؤنا الذين خلطوا بين هاتين المسألتين عند الحديث عن إعجاز القرآن.

أوجز بعض هؤلاء العلماء تعريف المعجزة بالقول: إنها أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة[1]، وعرّفها بعضهم بأنها أمر خارق للعادة يظهر على يد مدّعي النبوة عند تحدي المنكرين له على وجه يبيّن صدق دعواه أو على وجه يدل على صدقه، ولا يمكنهم معارضته. وجاء في تعريف ثالث أنها: «فعل الله سبحانه، الخارق للعادة، المقارن لدعوى الرسالة، متحدى به قبل وقوعه، غير مكذب، يعجز من يبغي معارضته عن الإتيان بمثله»[2].

وفي حين قال عضد الدين الإيجي صاحب «المواقف» إن حقيقة المعجزة: ما قُصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول الله. فإنه وضع لها -في بحث مفصل- سبع شرائط نوجزها فيما يلي:

«الأول أن يكون فعل الله تعالى.. لأن التصديق منه لا يحصل بما

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢/ ٣٢٤).

(٢) شرح السنوسية الكبرى ص٣٥١؛ وانظر الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي ص٩٦-٩٨ ؛ ومقدمة ابن خلدون ص٨٦/ع٢ (مكتبة الشعب).

ليس من قبله، الثاني أن يكون خارقاً للعادة، إذ لا إعجاز دونه... الثالث: أن يتعذر معارضته فإن ذلك حقيقة الإعجاز. الرابع: أن يكون ظاهراً على يد مدعي النبوة ليعلم أنه تصديق له»[1]

ثم تساءل الإيجي حول هذا الشرط بقوله: «وهل يشترط التصريح بالتحدي؟» وأجاب بقوله: «الحق أنه لا ، بل يكفي قرائن الأحوال، مثل أن يقال له: إن كنت نبياً فأظهر معجزاً، ففعل».

أما الشرط الخامس: فأن يكون موافقاً للدعوى، فلو قال: معجزتي أن أحيي ميتاً، ففعل خارقاً آخر لم يدل على صدقه.

«السادس: ألا يكون ما ادعاه وأظهره مكذِّباً له، فلو قال: معجزتي أن ينطق هذا الضَّبُّ، فقال إنه كاذب! لم يعلم به صدقه بل ازداد اعتقاد كذبه» ثم يستدرك الإيجي قائلاً: «نعم لو قال: معجزتي أن أحيي هذا الميت، فأحياه فكذّبه، ففيه احتمال. والصحيح أنه لا يخرج بذلك عن كونه معجزاً، لأن المعجز إحياؤه، وهو بعد ذلك مختار في تصديقه وتكذيبه، ولم يتعلق به دعوى» -وندع هنا الشرح والتعليق، مع التنويه بهذا التنبه، حتى في هذا السياق، إلى حرية الإرادة بوصفها مناط التكليف- أما الشرط السابع والأخير فهو «ألا يكون متقدماً على الدعوى، بل مقارناً لها لأن التصديق قبل وقوع الدعوى لا يعقل ! فلو قال معجزتي ما قد ظهر على يدي قبل، لم يدل على صدقه، ويطالب به بعد، فلو عجز كان كاذباً قطعاً»[2] .. إلخ.

جاءت هذه التعريفات والشروط -ونحوها كثير- في سياق الحديث عن النبوّات السابقة وعن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما أيده الله تعالى به من المعجزات الدالة على هذه النبوّة الخاتمة وبخاصة معجزة النبي الكبرى: القرآن الكريم. ووقفتنا هنا عند هذا الجمع، لأننا لا نستطيع

---

(١) المواقف في علم الكلام ص٣٣٩.

(٢) المصدر السابق.

التسليم بتعريف جميع «المعجزات» أو ببيان ماهية «المعجزة» على نحو واحد، كما لا يمكننا التسليم بصواب تلك الشروط أو بعمومها وانطباقها على جميع النبوات، نظراً للخصوصية التي تمتع بها النبي صلى الله عليه وسلم في معجزته الكبرى: القرآن الكريم؛ أي أن ما ينطبق على النبوات السابقة جميعها لا ينطبق بالضرورة على «إعجاز القرآن» وكذلك العكس.

ونحن إذا أنعمنا النظر في تاريخ النبوات -السابقة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم - لنقف على طبيعة المعجزات التي جاء بها الأنبياء السابقون. وعلى الصفات التي اتصفت بها «المعجزة» في هذا التاريخ؛ فإننا نلاحظ أن «المعجزة» لم تكن أكثر من دليل أو برهان على النبوة، أو حجة للنبي على قومه، بغض النظر عن مسألة (التحدي) أو شرط التحدي وُجد أم لم يوجد. وربما كان الماوردي قد قصد إلى شيء من هذا حين قال: «وإذا كانت حجج الأنبياء على أممهم هو المعجز الدال على صدقهم. فالمعجز هو ما خرق عادة البشر من خصال لا تستطاع إلا بقدرة إلهية تدل على أن الله تعالى خصّه بها تصديقاً على اختصاصه برسالته» فسمّاها «حججاً» أي أدلة وبراهين، وذكر أن الغاية منها «تصديق» النبي في دعواه أو في أن الله تعالى خصّه برسالته. كما أن الإيجي تساءل فيما نقلناه عنه قبل قليل بقوله: «هل يشترط التصريح بالتحدي»؟ ثم أجاب بقوله: «الحق أنه لا، بل يكفي قرائن الأحوال» فنسب (التحدي) إلى هذه القرائن، وما يمكن أن تشير إليه أو تدل عليه، ولهذا تساءل فقط عن (التصريح) بالتحدي، لا عن شرط التحدي ذاته بعد أن ذاع وشاع على ألسنة العلماء.

أما الصفات التي اتصفت بها (المعجزة) أو أدلة الأنبياء في تاريخ النبوات، وكما يدل على ذلك واقع الحال أو الاستقراء، وبغض النظر عن القيود التي أشير إليها في التعريفات السابقة، فهي كما يلي:

<u>الصفة الأولى</u>: كونها أمراً حسياً ناقضاً للعادة، ومخالفاً للمألوف من سنن الكون والطبيعة. وقد أجمعت التعريفات السابقة -وغيرها- على هذه

الصفة، وهي أن المعجزة أمرٌ خارق للعادة؛ يريدون أنها ليست مخالفة للعقل، ولا مناقضة لحكم من أحكامه، لأن التلازم الموجود أو القائم في الطبيعة بين الأسباب والمسببات مصدره العادة أو الحسّ والمشاهدة، وليس مصدره حكماً من أحكام العقل، أي أن هذا التلازم ليس من جنس التلازم الموجود بين المقدمات والنتائج في القضايا العقلية أو المسائل الرياضية[1].

الصفة الثانية: كونها من جنس الفن أو من الباب الذي كان يحسنه قوم النبي الذين بُعث فيهم، أو الذي اشتهر في بيئتهم أو عرف عنهم وبرعوا فيه. ويعود السبب في هذه الصفة فيما يبدو إلى أن هؤلاء القوم هم أولى من يعلم انفصال ما هم عليه -أو ما برعوا فيه- من جنس المعجزة التي جاء بها نبيّهم. ولهذا يمكن عدها -أي هذه الصفة- نوعاً من البيان أو إزاحة العلة أو «اللطف» -إذا استعرنا بعض مصطلحات المعتزلة- الذي يكون معه المكلف أقرب إلى الإيمان والتصديق؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ﴾[2].

ولهذا كان سحرة فرعون أول من آمن لأنهم علموا علم اليقين أن ما جاء به موسى ليس من جنس السحر، بل إنهم دفعوا حياتهم ثمناً لهذا

---

(١) التلازم أو الاقتران، كاحتراق القطن عند ملاقاة النار، مستمر أو قائم بجريان سنة الله تعالى، لأن فاعل الاحتراق على الحقيقة هو الله تعالى. قال الإمام الغزالي يرد على الفلاسفة : إن الخصم يدّعي أن فاعل الاحتراق هو النار فقط، وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار فلا يمكنه الكف عما هو من طبعه. وبعد أن قال الإمام الغزالي إن النار جماد لا فعل لها. قال: «وليس للفلاسفة من دليل على قولهم إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار. والمشاهدة تدل على الحصول عنده ولا تدل على الحصول به» ويقول إمام الفلسفة النقدية«كانْت»: لقد يجوز لك أن تتصور الشمس مشرقة من الغرب في الغد، وأن النار قد تتبدل عليها الظروف فلا تعود قادرة على إحراق عصاك الخشبية.
راجع الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص٥٠ ؛ والفلسفة القرآنية لعباس محمود العقاد (الجزء السابع من المجموعة الكاملة ص٢٣-٢٩) ومقالة في المعرفة للدكتور عدنان زرزور، ص٤٥ ؛وقصة الفلسفة لأحمد أمين وزكي نجيب محمود(١/ ١٧٩).

(٢) من الآية ٧ سورة الحجرات .

الإيمان العميق والحازم، وقد جبهوا فرعون بقولهم: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[1] حين توعدهم بأبشع صور القتل: ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[2]

الصفة الثالثة: كونها مفصولة عن دعوة النبي ورسالته، ومضافة إليها. أي أنها تمثل عنصراً خارجياً عن الكتاب أو الوحي الذي نزل على النبي، فإذا عبرنا عن هذا المنزل بأنه(دعوى) -بالألف المقصورة- النبي؛ فإن برهان هذه (الدعوى) ودليلها جاء مفصولاً عنها ومضافاً إليها؛ فقد جاء موسى عليه السلام بالتوراة، وكانت آيته (أو معجزته) قلب العصا حيّة. وجاء عيسى بن مريم بالإنجيل، وكانت آيته -أو معجزته- إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى.

ولم يصف أحد التوراة ذاتها أو الإنجيل نفسه بحكم كونهما وحياً إلهياً أو منزلين من عند الله بالمعجزة، فضلاً عن الإعجاز الذي وصف به القرآن الكريم فيما بعد.

الصفة الرابعة: وغني عن البيان أن نذكر أخيراً أن هذه الآيات -أو المعجزات- تاريخية، بمعنى أنها وقعت في التاريخ، رآها قوم النبي الذين بُعث فيهم، وشاهدوها -بوصفها معجزات أو خوارق حسية كما قدمنا- ثم انتهت الرسالات والمعجزات جميعاً، ولا يعدو أن يكون الحديث عنها الآن، أو بدءاً من عصر نزول القرآن الكريم وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم لا يعدو أن يكون حديثاً عن خوارق وقعت في عصر من العصور. ومن ثم فإن التسليم بوقوعها يعتمد على الرواية والنقل لا على المعاينة والمشاهدة بطبيعة الحال.

ولهذا فإن إيماننا نحن المسلمين أو تصديقنا بوقوع هذه المعجزات آكد -فيما نلاحظ- من تصديق كثير من أولئك الذين وقفوا في الإيمان عند

---

(١) ٧٢ سورة طه.

(٢) ٧١ سورة طه.

عتبة تلك الرسالات، ولم يتجاوزوا أنبياءها وكتبها إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن. لأن مسألة النقل عندهم يكتنفها الغموض والاضطراب، ولأن أسانيدهم في الرواية لا تصمد أمام قواعد النقد العلمي -وهي المسألة التي أثارها على وجه الخصوص الفيلسوف اسبينوزا في رسالته عن اللاهوت والسياسة، حين عرض بالنقد لأسانيد العهد القديم -في حين أن القرآن الكريم ارتقى بهذه المعجزات أو الخوارق في عقيدة المسلم، كما ارتقى كذلك بسيرة الأنبياء السابقين وحياتهم مع أقوامهم، إلى درجة التوثيق الإلهي الذي لا يعتريه باطل ولا يتطرق إليه شك.

ثانياً : بين هذه المعجزات وإعجاز القرآن

إذا انتقلنا إلى الحديث عن خاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فإننا نجد أن آيته وبرهانه على صدق نبوته وعلى أنه رسول يوحى إليه: (إعجاز القرآن) -وبغض النظر عن الآيات الحسية التي جرت على يديه، فِعْل الأنبياء السابقين، لأنها لم تكن المناط الأهم للإيمان والتصديق- ونحن إذا قارنا (إعجاز القرآن) بمعجزات الأنبياء السابقين أو بالصفات المذكورة -وبإيجاز شديد- فإننا نلاحظ مايلي:

١ - **أبرز سمات** إعجاز القرآن وأخطرها أنه مقرون بالتحدي، بل هو ثمرة له ونتيجة لعدم الاستجابة لهذا التحدي، أو لعدم القدرة على الإتيان بمثل القرآن أو بسورة من مثله أو بعشر سور مثله مفتريات. ولعلنا لو قلنا: إن الإعجاز لا معنى له بدون هذا التحدي لما كان ذلك بعيداً. ولهذا لم ترد كلمة (الإعجاز) في القرآن الكريم -كما وردت كلمة (برهان) أو سلطان بحق الأنبياء السابقين- لأن هذا المصطلح إنما ظهر ثمرة للتحدي المذكور في آيات التحدي الخمس رداً على من زعم أن القرآن مفترى، أو ظن أنه من عند غير الله. وربما كان الإمام الطبري (أبوجعفر محمد بن جرير، المتوفى ٣١٠هـ) أول من تحدث عن «البرهان» الذي يعجز عن أن يأتي بمثله جميع الخلق» وعن «عجز» المشركين والكفار عن

أن يأتوا بسورة من مثل القرآن: بوصف هذا العجز حجة محمد صلى الله عليه وسلم على صدقه [1] علماً بأن أول كتاب حمل عنوان «إعجاز القرآن» كان لمحمد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة (٣٠٦) والذي أخذ علم الكلام عن أبي علي الجبّائي المعتزلي [2] . وقد ذكر ابن النديم هذا الكتاب مع ثلاثة كتب أخرى حملت عنوان: «نظم القرآن» لابن الإخشيد وللحسن بن علي بن نصر وللجاحظ. . وذكر هذه الكتب الأربعة تحت عنوان: (الكتب المؤلفة في معانٍ شتى من القرآن) [3]

٢ - السمة الثانية: أن إعجاز القرآن -كما يدل عليه اسمه- ليس مفصولاً عن الوحي والرسالة، كما هي الحال في رسالات الأنبياء السابقين. فالكتاب الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن، وآية النبي أو معجزته الدالة على نبوته قائمة في الكتاب نفسه، أو هي الكتاب نفسه. ومعنى ذلك أن (الدعوى) -بالألف- ودليلها، أو القضية وبرهانها شيء واحد.

قال ابن خلدون: «اعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها، وأوضحها دلالة: القرآن الكريم المُنزَّل على نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم. فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرةً للوحي الذي يتلقّاه النبي، ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه. والقرآن هو بنفسه الوحي المُدَّعَى، وهو الخارق المعجز، فشاهده في عينه، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي. فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه».

ثم يربط ابن خلدون بين هذه السمة أو هذا المعنى والحديث التالي للنبي صلى الله عليه وسلم: قال: «وهذا معنى قوله صلى الله عليه

---

(١) تفسير الطبري: جامع البيان (١/٢٨) وبهامشه النيسابوري.

(٢) هو محمد بن عبدالوهاب بن سلام، نسبته إلى «جبى» من قرى البصرة. شيخ المعتزلة في عصره، توفي سنة ٣٠٣. الأعلام للزركلي (٧/١٣٦).

(٣) الفهرست لابن النديم تحقيق الدكتورة ناهد عباس عثمان ص٨١ والأعلام للزركلي(٦/٣٦٧).

وسلم: «ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما مِثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُه وحياً أوحيَ إليَّ ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

أما وجه الربط والاستدلال فهو ما عقّب به ابن خلدون على هذا الحديث الشريف بقوله الصائب: قال: «بشير بذلك إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة، وهو كونها نفسَ الوحي كان الصدق لها أكثر، لوضوحها، فكثر المصدّق المؤمن وهو التابع والأمّة»[1] .

ولا يسعنا ونحن ننقل هذا الكلام النفيس لابن خلدون إلا أن نؤكد على أن الحديث النبوي أشار إلى «معجزات» الأنبياء السابقين على أنها «آيات» كما لاحظنا في مطلع هذا البحث. وفي الوقت الذي قوبلت فيه هذه الآيات بالقرآن والوحي، أو بإعجاز القرآن.

ويبدو عند التدقيق في هذه السمة، ومن خلال معارضتها مرة أخرى بالسمة المقابلة في رسالات الأنبياء السابقين -سمة الفصل بين كتبهم ومعجزاتهم- أن المعجزة في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم لا تتصل كذلك بالقرآن من حيث هو وحي ينطبق عليه ما ينطبق على التوراة والإنجيل .. بوصفها جميعاً من كتب الله المنزلة، ولكنها تتصل بالمعنى الإضافي أو الخاص الذي صار به هذا الوحي الأخير معجزاً، أو الذي وقع به التحدي وتحقق -من ثم- الإعجاز. بدليل أن تلك الكتب ليس فيها (إعجاز) على الرغم من كونها وحياً يوحى.

وليس في وسعنا، ولا من همّنا هنا، أن نستقصي هذا المعنى؛ لأنه يتصل بتاريخ الإعجاز الطويل كما هو معلوم. ولكننا نكتفي بالإشارة إلى أمر حاسم، وهو أن العلماء في القرون الأولى.. ومعظمهم أو كثير منهم في سائر القرون، بحثوا عن هذا المعنى في «وصف القرآن وبيانه ونظمه.. وفي مدى مباينة خصائصه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان في لغة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٨٨

العرب»[1] ولم يبدأ البحث عن هذا المعنى في «مضامين القرآن» أي في الوحي أو(الدعوى) والرسالة ذاتها إلا عند بعض العلماء من جهة، وفي ركاب الحديث عن النظم والبيان أو في خضم الحديث عن هذا النظم، من جهة أخرى. ويبدو أن أول النقاط ظهوراً في هذا الجانب كانت الحديث عما تضمّنه القرآن الكريم من أخبار الغيوب المستقبلة.

ندع هذا الآن لنقرر أن اتجاه العلماء إلى البحث عن إعجاز القرآن في بيانه ونظمه، كان صحيحاً ومنطقياً تماماً؛ لأن التحدي لا يكون تحدياً على الحقيقة إلا إذا كان الأمر المتحدَّى به معروفاً عند من يتحداهم، ومتساوقاً، في صورته وظاهره، مع مقاييسهم والمعهود من أوضاعهم[2] ، وإلا لافتقر إلى شروط التحدي الحقيقية، وكان تكليفاً بما لا عهد لهم به أو بشيء غير مؤهلين للإتيان بمثله.

والأمر الذي يؤكد أن إعجاز القرآن انطلق من هذا المعنى السليم أو من هذه الدائرة الصحيحة: أثره البارز في نشأة علم البلاغة العربية كما هو معلوم. وعلى الرغم من أن هذين العلمين: علم إعجاز القرآن، وعلم البلاغة العربية؛ سارا فيما بعد جنباً إلى جنب؛ فإن البلاغة كانت الوسيلة لإدراك الإعجاز، وبقيت -لذلك- في خدمة هذا العلم الجليل؛ قال أبو هلال العسكري: «وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخلّ بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب..»[3]

وقال الإمام يحيى بن حمزة العلوي: «يراد علم البلاغة لمقصدين: الأول منهما مقصد ديني وهو الاطلاع على إعجاز كتاب الله، ومعرفة

---

(١) من مقدمة الأستاذ محمود شاكر رحمه الله لكتاب: «الظاهرة القرآنية» للأستاذ مالك بن نبي رحمه الله، ص٣٠

(٢) قيل: «ولا يثبت إعجازه على الكافة إلا بما يعزب على الكافة الإتيان بمثله، مع اعترافهم بأن في مقدورهم من جنسه» الفوائدالمشوقة إلى علوم القرآن لابن القيم ، ص٣٣٨.

(٣) كتاب الصناعتين، ص٧.

معـجزة رسول الله صلى الله عليـه وسلم؛ إذ لا يمكن الوقوف على ذلك إلا بإحراز علم البيان والاطلاع على غوره»[1]

بل إنه عرف البلاغة بأنها: «علم يمكن معه الوقوف على معرفة أحوال الإعجاز، لأن الإجماع منعقد من جهة أهل التحقيق على أنه لا سبيل إلى الاطلاع على معرفة حقائق الإعجاز وتقـرير قواعده من الفصاحة والبلاغة إلا بإدراك هذا العلم وإحكام أساسه» وحين أخَّـر الحديث عن الإعجاز في كـتـابه المشـهـور فـي البـلاغـة -الطراز- إلى (الفن الثـالـث من علوم هذا الكتاب) قال: «ونحن وإن ذكرناه على جهة التتمة والتكملة فهو في الحقيقة المقصود والغرض المطلوب»[2] ، وقد سمَّى كتـابه: «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز» رحمه الله تعالى.

بل إن الإعجاز إذا أطلق صار يراد به البلاغة نفسها.

قلت: وربما حملت إشارته السابقة إلى الإجماع المنعقد على ذلك من جهة أهل الـتحقيق، الدلالة على أن الإعـجاز كان قد خُرِج بـه إلى ساحة أخرى في هذا العصر المتأخر-(توفي يحيى بن حمزة عام٧٤٩هـ)- من قبل غـيـر أهل التـحـقـيق، أو من قـبل الذيـن لا يُعـتـد بخـروجـهم على هذا الإجمـاع. ولهذا قام بنقض فكـرة (الصرفة) -كـما ستـحـدث فيمـا بعد- وأكـد على أن «القـرآن إنما كـان إعـجـازه من أجل مـا اشـتـمل عليـه من الفصاحة والبلاغة، ولـم يكن إعجازه ما اشتمل عليه من أنباء الغيب، ولا من الحكم والمواعظ وغيرها من الأوجه»[3]

٣ - السـمة الثـالـثة: وغني عن البـيان أن نشـير بعـد ذلك إلى سمـة الخلود أو الاسـتمرارية وعـدم الانقطاع التي تميـز إعجاز القـرآن: بمعنى أن الإعجـاز لا نتحـدث عنه اليوم، ولا تبـحث فيه الأجـيال القـادمة بوصـفه مسألة تاريخـية مقصورة -أو كـانت مقصورة- على عصـر معيّن، أو على

(١) الطراز (١/ ٣٢)
(٢) الطراز (٣/ ٢١٣)
(٣) الطراز (١/ ٣٣)

جيل التنزيل على وجه الخصوص، ولكنه قائم ومستمر إلى يوم الدين، بدليل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(٢٤) ﴾ سواء أقلنا إن ﴿لن﴾ لمطلق النفي أم لتأبيد النفي كما ذهب إلى ذلك الزمخشري. وبدليل آية سورة الإسراء التي أطلقت هذا التحدي في آخر مراحله، وأشدها وطأة في باب التعجيز والتيئيس! قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً(٨٨) ﴾، فالإنس والجن مجتمعين ومتظاهرين لو قُدر لهما التعاون والتظاهر - أو حين يقدر لهما ذلك- ﴿لا يأتون﴾ بمثل القرآن؛ بصيغة المضارعة هذه «يأتون» الدالة في هذا السياق على الاستقبال. والجدير بالذكر أن هذه الآية لم يأت التيئيس فيها مقروناً بالرد على من زعم أن القرآن مفترى أو إن زعم ذلك. ولكنه جاء عاماً ومطلقاً. وربما كان هذا هو السبب في مجيئه دالاً على الاستقبال كما قلنا.

وتحسن الإشارة في هذا السياق إلى أن ضم الجن إلى الإنس له دلالته المهمة، لا بحكم قدرات الجن وكونهم من عالم الغيب فحسب، والقرآنُ وحيٌ من عالم الغيب، ولكن كذلك بحكم كونهم مخاطبين بالقرآن الكريم، وأن فيهم المؤمن والمكذب برسالة الإسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم، وبحكم انفعال النفر الذين استمعوا إلى قراءة النبي للقرآن، وتأثرهم عند سماعه ووصفهم له بما يدل على إدراكهم لبعض أسراره أو وجوه إعجازه: قال تعالى في مطلع السورة المسماة باسمهم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً(٢)﴾[1] فوصفوا القرآن، بمجرد سماعهم له، بما يدل على إعجابهم بأسلوبه، وإدراكهم لرسالته ومضامينه.

---

(١) الآيتان ١-٢ من سورة الجن. وانظر الآيات ٢٩-٣٢ من سورة الأحقاف.

فقد وصفوه بأنه «عجب» وأنه «يهدي إلى الرشد» الأمر الذي دعاهم إلى اطّراح الشرك والدخول في دين الله. إن إسلامهم بمجرد سماع القرآن يدل على أنه أحدث في نفوسهم وعقولهم مثل ما أحدثه هذا السماع في نفس عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أو قريباً منه، «وقد بيّن الله تعالى في غير آية في كتابه أن سماع القرآن يقتضيهم إدراك مباينته لكلامهم وأنه ليس من كلام بشر، بل هو كلام رب العالمين، وبهذا جاء الأمر في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾(سورة التوبة: الآية٦)»[1]

٤ - **والسؤال الآن،** أو الذي يطرح نفسه أخيراً: هل يُقابَل استمرار التحدي ولزوم الإعجاز في جميع العصور، بالقول: إن كل عصر واجدٌ من أسباب الإعجاز ما لم يكن الجيل أو العصر السابق قد وقف عليه؟

والجواب : أن ذلك ليس شرطاً بطبيعة الحال؛ فقد توجد نظريات وآراء في تفسير الإعجاز في بعض العصور دون بعض، وقد يمثل عصر لاحق -في بعض الأحيان أو على ألسنة بعض العلماء- نكوصاً عن عصور خلت، كما هي الحال في مسائل الفكر والنقد والأدب والفن .. وفي سائر المعارف المتعلقة بالإنسان بوجه عام. والأصل في جميع الأحوال: استمرارُ التحدي ولزوم الإعجاز: سواء أذهبنا في تفسير الإعجاز مذهباً جديداً أم عوّلنا فيه على آراء المتقدمين.

وإذا كان باب القول في القرآن لا يوصد إلى يوم الدين؛ فإن في وسعنا أن نقول في هذا الموقف، ومن خلال استعراض تاريخ الإعجاز: إن كل الآراء التي قيلت في تفسيره، أو في تعيين الوجه الذي كان به القرآن معجزاً حتى استحال على الثقلين أن يأتوا بسورة من مثله .. لا تتسع فيما يبدو لترجمة شعورنا بحقيقة الإعجاز ونحن نقرأ القرآن الكريم أو نستمع إليه! على الرغم من بُعدنا النِّسبي عن السليقة العربية ... فضلاً عن أن هذا هو شعور المتذوق للبلاغة العربية، وشعور الذين اعتادوا

(١) من مقدمة الأستاذ محمود شاكر، لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي ، ص٢٥.

على مزاولة فن الكتابة والتعبير.

ويبدو أن شعوراً من هذا القبيل كان يخامر بعض العلماء الذين كتبوا في الإعجاز، كالإمام الباقلاني على سبيل المثال. فإن هذا الشعور هو الذي دفعه -فيما نقدر- إلى جمع طائفة من خطب النبي صلى الله عليه وسلم ورسائله. ومن خطب سيدنا علي، وبعض الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.. إلى جانب طائفة أخرى من أبلغ ما وصل إلينا من خطب أرباب البيان[1] .. ومقارنة هذه الخطب والأقوال والأحاديث بالقرآن الكريم، ليثبت للقارئ من خلال هذا الدرس العملي أو التطبيقي انفصال كلام الله تعالى من سائر أنواع الكلام بوجوهٍ من البيان صار بها معجزاً أبد الدهر . وكأنّ لسان حاله يقول: وإن قصَّر بالكاتب عِلمه وقلمه عن إدراك هذه الوجوه أو نقلها والتعبير عنها!

بل إن هذا ما صرّح به الإمام يحيى بن حمزة بعد ذلك، مؤكداً على أن تميز القرآن عن سائر هذه الضروب من الكلام البليغ لا يشتبه على «من له أدنى ذوقٍ في معرفة بلاغة الكلام وفصاحته» فعوّل في هذا الفهم أو التمييز على (الذوق) على الرغم من أنه فصّل القول بعد ذلك في أسباب ومرجع ذلك التمييز من الوجهة البلاغية. قال الإمام يحيى بن حمزة: «إنك إذا فكرت وأمعنت النظر في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي كلام أمير المؤمنين وغيرهما ممن كان معدوداً في زمرة الفصحاء، وكان له منطق في البلاغة في المواعظ والخطب والكلم القصيرة ، ومواقع الإطناب والاختصار في المقامات المشهودة والمحافل المجتمعة؛ وجدت القرآن متميزاً عن تلك الكلمات كلها تمييزاً لا يتمارى فيه منصف، ولا يشتبه على من له أدنى ذوق في معرفة بلاغة الكلام وفصاحته»[2].

بل إن السكاكي(ت٦٢٦) نصّ على مسألة (الذوق) هذه وأبان عن مقصده فيها في سياق حديثه عن البلاغة التي «تأخذ في التزايد متصاعدة

(١) راجع كتاب «إعجاز القرآن» بتحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر رحمه الله. ص٦٦

(٢) الطراز (٣/ ٢١٥)

إلى أن تبلغ حـد الإعجـاز» الذي قال فيـه إنه«عجيب ولا يمكن وصفـه، كاستقـامة الوزن تدرك ولا يمكن وصـفهـا، وكالملاحـة! ومدرك الإعـجاز عندي هو الذوق ليس إلا»[1] .

ثم نجد الأستاذ الأديب الناقد المفسّر سيد قطب رحمه الله يشير كذلك إلى هذا المعـنى، على الرغم من إضـافـاته وإضـاءاته المهـمـة في تاريخ الإعجاز، والتي أفردت بالبحث والتصنيف.

قال رحمه الله في تفسير آية سورة يونس: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُـورَةٍ مِّثْلِـهِ وَادْعُوا مَنِ اسْـتَطَعْـتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـادِقِينَ﴾ (الآية ٣٨): «وقد ثـبت هذا التحـدي ، وثبت العجـز عنه، وما يزال ثابتـاً ولن يزال. والذين يدركون بلاغة هذه اللغة، ويتـذوقون الجمال الفني والتناسق فيها، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان»[2] .

وقـال أيضـاً: «والذين زاولوا فن التـعبيـر، والذين لهم بصـر بالأداء الفني، يدركون أكثـر من غيرهم مدى ما في الأداء القـرآني من إعجاز في هذا الجانب. .» ثم قدم للإلمامـة الخاطفة التي قدمها عن الإعـجاز، بمناسبة شرحه للآية المذكورة، بقوله:

«ومع تقدير العجز سلفاً عن بيان حقـيقة هذا الإعجاز ومداه، والعجز عن تصويـره بالأسلوب البشري، ومـع تقدير أن الحديث المفـصل عن هذا الإعجاز، في حدود الطاقة البشرية، هو موضوع كتاب مستقل، فسأحاول هنا أن ألـمّ إلمامة خاطفة بشيء من هذا. إن الأداء القـرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري . . . إن له سلطاناً عجيباً على القلوب ليس للأداء البشري، حتى ليبلغ أحياناً أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً!»

---

(١) مفتاح العلوم: تحقيق: د.نعيم زرزور، ص٤١٦ قال السكاكي: «وطريقة اكتساب الذوق: طول خدمة هذين العلمين» (البلاغة والفصاحة)

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٧٨٥).

ثم شرح طرفاً من هذا السلطان بين يدي الحديث عما أسماه: «الجوانب المدركة التي يعرفها أكثر من غيرهم مَن يزاولون فنّ التعبير، ومَن يزاولون التفكير والشعور»[1]

ونؤكد مرة أخرى على أن سيد قطب رحمه الله تعالى يقول هذا على الرغم من حديثه عن بعض مزايا الأداء القرآني على نحو غير مسبوق، فضلاً عن حديثه أو نظريته في التصوير الفني، وما دفع به عن هذه الفكرة في وقت مبكّر. وإن كان الحق أن نقول: إن هذه الإضافات التي قدمها سيد قطب إنما جاءت من مكانته المتميزة في النقد الأدبي وعلوم البلاغة العربية، وأن هذه المكانة هي التي كانت وراء ملاحظاته تلك، أو وراء منهجه (الذوقي) وتعويله في إدراك الإعجاز على الذين زاولوا فن التعبير، والذين لهم «بَصَر بالأداء الفني» بحسب عباراته رحمه الله.

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن منهج (التذوق) في إدراك إعجاز القرآن أو بعض وجوه هذا الإعجاز، لأن هذا بحاجة إلى دراسة موسعة، ولكنْ حين يتحدث أديبٌ ناقد مثل الأستاذ سيد قطب، وراوية أديب صاحب بيان غير مسبوق خلال مئات السنين أو منذ أيام الجاحظ(ت٢٥٥)، وأعني الأستاذ محمود شاكر رحمه الله. عندما يتحدث كل منهما عن هذا المنهج (الذوقي) أو منهج التذوق في إدراك إعجاز القرآن أو في نقد النصوص الأدبية والتعامل مع الشعر والنثر بوجه عام، فإن الأمر يحتاج في هذه العجالة إلى شيء من البيان.

يذكرنا هذا المنهج الذوقي بمذهب الحدسيّين في المعرفة. وهو المذهب القائل إن المعرفة بَصيرة أو لقَانةٌ. وأبرز من دافع عن هذا المذهب من الفلاسفة المعاصرين (هنري برجسون) الذي دار حديثه عن معرفة تنفذ إلى باطن الشيء لا عن معرفة تدور حوله، وعن معرفة لا تلعب فيها اللغة دوراً، وعن معرفة مطلقة لا عن معرفة نسبية[2] ! وعند التأمل فيما عرضه

---

(١) المصدر السابق (٣/١٧٨٦ - ١٧٨٧)

(٢) راجع قصة الفلسفة الحديثة تأليف أحمد أمين وزكي نجيب محمود(٢/٣٦٦). وكتاب

(برجسون) نجد أن للحدس عنده طابعاً عقلياً. بل نجده يتحدث أو يصف معرفة فائقة للعقل وتسمو على كل ضربٍ من ضروب المعرفة الاستدلالية المحضة! وفي ذلك يقول برجسون: «إن المعرفة العلمية الدقيقة بالواقع لهي الشرط الضروري الذي لابد أن يسبق كل حدس ميتافيزيقي يكون من شأنه أن ينفذ إلى مبدأ تلك الوقائع» فلا تعطيل إذن عنده لأي من الحسّ أو العقل، ولكنه انطلاق منهما ومن ثم تجاوزهما إلى أفق الحدس أو (البصيرة).

وكذلك الحال في موضوعنا.. لا إهمال لأي بابٍ من أبواب البلاغة والنقد ومدارس تحليل النصوص، بل على العكس من ذلك : نحن أمام بصرٍ كبير بتلك الأبواب واطلاع شامل ومعايشة مستمرة لا تكاد تنقطع مع هذه النصوص ... يفضيان بصاحبها أو يصلان به إلى درجة الحدس إن صح التعبير أو إلى (مقام) التذوق وإدراك مواطن الجمال وتقرير ما يستطيعه الإنسان أو يقدر عليه وما لا يستطيعه ولا يقدر عليه من ضروب الكلام وفنون التعبير .. لقد جاء حديث كل من سيد قطب ومحمود شاكر من هذا المنطلق أو على هذه القاعدة في الفهم المتميز للنصوص، والحديث المتميز عن إعجاز القرآن، في وقت واحد.

نذكر هذا وننوّه به، على الرغم من تسليمنا بأهمية بعض الآراء والنظريات التي قيلت في تفسير إعجاز القرآن، ودورها في الأخذ بيدنا نحو تذوق الكثير من جوانب هذا الإعجاز وإدراك مواطنه والوقوف على أسبابه. ويأتي في مقدمة هذه الآراء والنظريات -فيما نرجحه ونذهب إليه- نظرية النظم التي بسط فيها القول الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه «دلائل الإعجاز» وبالمفهوم الذي ذهب إليه رحمه الله. مع الإشارة إلى أن نظرية النظم هذه عند عبدالقاهر ربما كانت تطويراً وامتداداً لما كتبه الجاحظ في رسالته (نظم القرآن) أو انطلاقاً منه وتأسيساً عليه.

والذي نراه -بهذه المناسبة- أن نظرية النظم هذه ماتزال تشكل قاعدة

المذهب في فلسفة برجسون للدكتور مراد وهبه ص٦٠.

ما قيل في تفسير الإعجاز وهيكله العام إن صح التعبير، ولم نر فيما اطلعنا عليه حتى الآن من آراء ونظريات ما يمكن عدّه قسيماً لهذه النظرية، أو تعفية عليها، بل ما لا تتسع له هذه النظرية بوجه عام، اللهم إلا فكرة الصرفة التي ندّت عن أي اعتبار، وكما سنعرض لذلك في بحث آخر إن شاء الله.

ثالثاً : أبرز القضايا التي تثيرها هذه السمات في ضوء تعريف المعجزة

إذا عدنا للنظر في هذه السمات الخاصة بإعجاز القرآن في ضوء تعريف المعجزة الذي صدّرنا به هذا البحث، أو توقفنا لمقارنة هذه السمات بالتعريف أو التعريفات المذكورة؛ فإن في وسعنا أن نلاحظ القضايا التالية:

القضية الأولى :

أن«معجزات» الأنبياء السابقين لم تكن مقرونة بالتحدي بأي عبارة من العبارات؛ اللهم إلا أن نقدر نحن أو نقول: إن الموقف كان يقتضي ذلك ويدل عليه!!

ولكن إذا لاحظنا أن القرآن الكريم لم يسمّ واحدة منها«معجزة» ولكن سماها «آية» و سلطاناً -والتعبير بـ «آية» كان أكثر وروداً - وأن كونها كذلك لم يكن ثمرة التحدي لأنها وصفت ابتداء -وانتهاءً- بأنها آية أو سلطان؛ لجاز لنا أن نقول: إن قولهم في تعريف المعجزة -أي معجزة- إنها مقرونة بالتحدي، ليس بصحيح، أو أنه يحتاج إلى مراجعة وتدقيق على أقل تقدير.

ولجاز لنا أن نقول أيضاً: إن هذا المصطلح (معجزة) نفسه ربما لم يحل محل الآية والسلطان أو البرهان لولا الطبيعة الخاصة (للآية) التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، والتي كانت السبب فيما يبدو وراء ظهور الإعجاز والمعجزة جميعاً؛ لأن الإعجاز مصدر من: أعجز. ومعجزة:

اسم فاعل منه لحقته تاء التأنيث. فالقرآن الكريم معجز أو هو المعجزة، وهذا يناسب وقوع التحدي مع بقاء القدرة. فإطلاق «العجز» على انتفاء القدرة في (آيات) الأنبياء السابقين توسع[1].

والراجح أن (الآيات) التي جاء بها الأنبياء السابقون أو التي أظهرها الله تعالى على أيديهم أقرب إلى أن تكون تصديقاً من الله تعالى لأنبيائه أكثر من كونها تحدياً لأقوامهم. ويبدو أن هذا ما قصد إليه بعض العلماء عندما قالوا في سياق شرح المعجزة: إنها تقوم مقام قول الله تعالى لنبيّه: صدقت: أي في التبليغ عن ربك. ولهذا فإن هؤلاء الأقوام هم الذين بادروا إلى المعارضة والتكذيب؛ بمحاولة رد هذه الآيات إلى المعهود من أوضاعهم وأحوالهم، أو لجأوا إلى السخرية والاستهزاء بهذه الآيات؛ كما فعل فرعون وملؤه مع موسى عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى﴾[2]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨)﴾[3]

ويصعب علينا ملاحظة موقف التحدي أو روح التحدي من قبل النبي في مثل هذه المواقف والأحوال، فضلاً عن استحالة ملاحظتها في عدم تكليم الناس ثلاثة أيام سوياً، أو في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، أو في إخبارهم بما يأكلون أو يدّخرون في بيوتهم، أو في عدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام.. إلخ.

هل يمكننا القول: إن مسألة (التحدّي) استُعيرت من (إعجاز القرآن)

(١) راجع شرح السنوسية الكبرى، ص٣٥٣.

(٢) الآيتان: ٥٦-٥٧ سورة طه.

(٣) الآيات: ٤٦ - ٤٨ سورة الزخرف.

كما استُعير المصطلح نفسه (المعجزة) وسحب على آيات الأنبياء السابقين؟ يبدو لنا ذلك والله أعلم.

القضية الثانية:

وفي المقابل، أي في مقابل مسألة التحدي هذه التي استُعيرت من إعجاز القرآن، استعار علماؤنا مسألة ارتباط معجزات الأنبياء السابقين بالبيئة التي ظهروا فيها، والقوم الذين بُعثوا بين ظهرانيهم، وسحبوها على (إعجاز القرآن) فقالوا: إن السبب في كون معجزة النبي صلى الله عليه وسلم بيانية أن العرب كانوا ذوي فصاحة وبيان، وأن البلاغة أنفسُ بضاعتهم وأعظم ما برعوا فيه؛ كما جاء عيسى بن مريم عليه السلام بمعجزة إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص في قوم برعوا في الطب، وكما جاء موسى عليه السلام مِن قبْلُ بمعجزة قلب العصا حيَّةً في قوم كانت بضاعتهم السحر.

وعندنا أن هذا الكلام المتداول عبر العصور -ونحوه كثير- فيه إشارة أو دلالة غير مباشرة على أن القرآن معجزة العرب وحدهم، بل إن الشبه قد وصلت ببعض المحدثين إلى حد الزعم بأن القرآن رسالة عربية، وأن الرسالة التي نزلت فيهم وبلسانهم هي لهم، وأن الإسلام إنما هو دين العرب!!

ونحن هنا نرى وجوب التفريق بين كون معجزة النبي بيانية، وكون هذا البيان جاء بلغة العرب. ويبدو أن مثل هذا التفريق لم يكن موضع ملاحظة علمائنا القدامى أو موضع اهتمامهم، في الوقت الذي فرّقوا -عبر عصور التاريخ المختلفة- بين كون الرسالة الإسلامية نزلت في العرب وكونها رسالة إنسانية عامة وليست خاصة بالعرب وحدهم أو مقصورة عليهم.

لقد كانت معجزة النبي الكبرى «بيانية» لأنها إنسانية، وليس لأنها نزلت في قوم بلغاء أو بضاعتهم البيان. أو بعبارة أخرى: اختار الله تعالى

لها لساناً مبيناً، لأنها معجزة بيانية، وليس العكس. ولا نتحدث هنا عن مزايا العرب وخصائصهم لأن هذا عرضنا له في موضع آخر. وليس هو المقصود بالبحث هنا على كل حال.

إن الكلام والبيان هو ما امتاز به الإنسان، فجاء إعجاز القرآن بيانياً للإشارة إلى أن رسالته هي رسالة الإنسان حيث كان وفي أي زمان وُجد. وإشارةً كذلك إلى فضيلة «البيان» التي يتفاضل بها (الناطقون) والتي يمكن عدّها زيادة في إنسانية الإنسان، بوصف النطق -والقراءة بأي لسان- أخص خصائص الإنسان. ولعل في ابتداء نزول القرآن بقوله تعالى(اقرأ) ما يشير إلى هذه الطبيعة الإنسانية لهذه المعجزة. بل لعل في تخصيص الإنسان بالبيان في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ القُرْآنَ*خَلَقَ الإنسَانَ* عَلَّمَهُ البَيَانَ *﴾[1] ما يؤكد جميع هذه المعاني؛ فبالبيان يمتاز الإنسان من سائر الأحياء، وبميزة البيان تمتاز رسالة الإسلام، وإن شئت قلت: رسالة الإنسان من بين سائر الرسالات. وقد يكون لتقديم تعليم القرآن في هذه الآيات البينات على خلق الإنسان علاقة بهذا الذي نقول.

ولم يكن البيان بمعناه الأدق من «النطق» وقفاً على لغة من اللغات أو أمة من الأمم. ولكن اختيار لغة العرب لينزل بها القرآن، وليُحمل بها إلى العالم رسالة الإنسان، يشير إلى فضيلة بيانية جامعة امتاز بها اللسان العربي على كل لسان، وقد أفردنا الحديث عن هذه الفضيلة في بعض المقالات الأخرى. ووجدنا أنها تتمثل في كونها لغة إنسانية، وقد أفضى بنا ذلك إلى عدّها مثال اللغات - كما شرحنا في موضع آخر أن العرب هم مثال الشعوب-وقد أفدنا في هذه المقالات مما كتبه الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد رحمه الله في كتابه «اللغة الشاعرة» على وجه الخصوص. ولا يتسع المجال هنا لاستعراض هذه المقالات، ونكتفي بالقول: إن اللغة العربية لغة إنسانية اتسعت لمضامين القرآن العامة والخالدة؛ بوصفها مضامين إنسانية.. وهذا هو السبب -والله أعلم- في كون الآية التي جاء

---

(١) الآيات: ١ - ٤ سورة الرحمن.

بها النبي -أو معجزته- بيانية تمثلت في (إعجاز القرآن) وليس لأن العرب كانوا ذوي فصاحة وبيان . . قياساً على معجزات أو أدلة الأنبياء السابقين -صلى الله عليهم أجمعين- وما برع فيه كل قوم من أقوامهم في التاريخ.

وأخيراً فإن أقل ما يمكن ترتيبه من نتائج على عدم التفريق هذا بين كون المعجزة بيانية وكون هذا البيان نزل بلغة العرب -وهي نتائج تستحق البحث والدراسة- أنه كان وراء عدم ظهور علم مقارنة اللغات في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية؛ قياساً على علم مقارنة الأديان الذي يمكن رد نشأته إلى المسلمين[1] ، من خلال إيمانهم بعالمية الإسلام وهيمنة الكتاب ؛ في الوقت الذي ضاعت فيه فكرة هيمنة اللغة إن صح التعبير. إن مثل هذا العلم كان لابد أن يُؤَسَّس ويتابَع عبر العصور، من أجل إثبات مزية اللسان العربي على جميع اللغات ؛ ما كان موجوداً منها بعد اكتمال نزول القرآن، وما نشأ منها بعد ذلك عبر تاريخ الإعجاز أو تاريخ التحدي الطويل والممتد إلى يوم الدين. ولا يكفي لإثبات هذه المزية أو المزايا: الدراسات التي تغفل هذه المقارنات أياً كانت منزلتها في البرهنة أو الاستدلال على أن هذا اللسان لسانٌ مبين، وأن هذه اللغة الشريفة لغة عبقرية.

ولو أن مثل هذا العلم -علم مقارنة اللغات- أُسِّس على هذا النحو لكان له من الأثر الإيجابي لا في اللغة وبحوث الإعجاز والبلاغة وحدها من جوانب الثقافة العربية الإسلامية، بل في جوانب وأبواب ثقافية وعلمية أخرى خطيرة. وإذا كانت اللغة -أي لغة- هي مرآة الثقافة كلها، وتعكس درجة التقدم العلمي والحضاري لمجتمع من المجتمعات أو أمة من الأمم، فأي لونٍ من ألوان المعارف كان سيقف عليه العرب والمسلمون لو كان الاطلاع على اللغات الأخرى ودراستها أحد تقاليدهم الثقافية عبر التاريخ الطويل؟ وأي أثر كانت ستحدثه مثل هذه المعارف -وبخاصة معارف الأمم

---

(١) راجع الهامش رقم (٢) ص ٥٩ من كتابنا «الحاكم الجشمي». وانظر الإحالة على كتاب فرق الشيعة للنوبختي بتحقيق ريتر. وكتاب الحضارة الإسلامية لآدم متز (١/ ٢٩١).

المتقدمة- في أوضاعهم وأحوالهم بشكل عام.

القضية الثالثة:

أما القضية الثالثة فتأتي تالية لهذا التفريق -وربما بناءً عليه- وهي مدى لزوم إعجاز القرآن لغير العرب، وهل يمكن القول إن هذا الإعجاز يلزم غير العرب أيضاً؛ لأن لزومه في أعناق العرب وقد نزلت هذه المعجزة البيانية بلسانهم لا يحتاج إلى إيضاح، ولكن هل يعني ربطنا لهذا البيان بالإنسان أن هذا الإعجاز البياني -أو بعبارة أدق: البياني العربي- يلزم غير العرب أيضاً؟

ونقول في الجواب: إن هذا ليس ضرورياً، وقد لا يبدو للوهلة الأولى منطقياً كذلك!! ولكن هذا لا يمنع من البحث عن آفاق أو ضروب من الإعجاز البياني -العربي- يمكن أن يدركها أو يقف عليها غير العرب. وربما كان من أسباب نزول هذا البيان بلغة العرب أن هذه اللغة تتسع لضروب من هذا الإعجاز يمكن أن يدركها أو يلاحظها أصحاب اللغات الأخرى، مثل ما أسماه الرافعي: إعجاز النظم الموسيقي، أو ما بحث فيه الدكتور دراز تحت عنوان: «نظرتان في القشرة السطحية للفظ القرآن»: **الأولى**: الجمال التوقيعي في توزيع حركاته وسكناته ومدّاته وغنّاته. **والثانية**: الجمال التنسيقي في رصف حروفه وتأليفها من مجموعات مؤتلفة مختلفة» -وقد أوجز الحديث فيهما الزرقاني تحت عنوان: «نظام القرآن الصوتي وجماله اللغوي»- وكذلك مثل ما أسماه بعض الباحثين: الإعجاز في نغم القرآن[1].

وأعتقد أن علم مقارنة اللغات -الذي أشرنا إليه -كفيل بإنضاج مثل هذه الألوان من البيان أو ضروب الإعجاز. مع التذكير أو التأكيد في هذا

(١) راجع إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي ص٢٤٤. والنبأ العظيم للدكتور محمد عبدالله دراز ص١٠٠-١٠٧. ومناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبدالعظيم الزرقاني (٢/٣٠٩-٣١١) ومباحث علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ص٣٨٥.

السياق على خصائص الحروف العربية في هذا الجانب، بل في الجانب البصري، من حيث الشكل الهندسي والقوة التعبيرية التي تدعو إلى التأمل وتثير الإعجاب. ولا نعتقد أن تذوق ذلك كله أو إدراكه موقوف على العرب وحدهم.

نحن لا نملك في هذا الجانب أمراً حاسماً أو قاعدة مستقرة، ولكن حين يؤثّر القرآن بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً واحداً، فإن الأمر يحتاج إلى مزيد من التأمل والدراسة، ويحتاج كما يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله إلى «تفسير وتعليل» فقد ذكر حادثاً وقع له -ومعه عليه ستة شهود- على ظهر سفينةٍ مصرية كانت تمخر بهم عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك. وقد اكتفى رحمه الله بذكر هذه الواقعة عن ذكر نماذج مما وقع لغيره. وخلاصتها أنه خطب الجمعة في المسلمين الذين كانوا على ظهر تلك السفينة وأمَّهم في الصلاة، ومعظم الركاب الأجانب متحلقون يرقبون الصلاة. يقول سيد رحمه الله: «وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئوننا على نجاح «القداس»!! .. ولكن سيدةً من هذا الحشد كانت شديدة التأثر والانفعال، تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها، جاءت تشد على أيدينا بحرارة، وتقول: إنها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح! ... ثم قالت: أي لغة هذه التي كان يتحدث بها«قسّيسكم»؟.. إنها ذات إيقاع موسيقي عجيب وإن كنت لم أفهم منها حرفاً!»

ويضيف الأستاذ سيد -رحمه الله- قائلاً: «ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهي تقول: ولكن هذا ليس الموضوع الذي أريد أن أسأل عنه.. إن الموضوع الذي لفت حسّي هو أن «الإمام» كانت ترد في أثناء كلامه بهذه اللغة الموسيقية فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه! نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعاً.. هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث فيَّ رعشة وقشعريرة! إنها شيء آخر كما لو كان «الإمام» مملوءاً من الروح القدس -حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها -وتفكرنا قليلاً. ثم أدركنا أنها تعني الآيات

القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وفي أثناء الصلاة! وكانت مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة من سيدة لا تفهم مما نقول شيئاً»[1]

ثم يعقب سيد رحمه الله على هذا بقوله: «وليست هذه قاعدة كما قلت، ولكن وقوع هذه الحادثة -ووقوع أمثالها مما ذكر لي غير واحد- ذو دلالة على أن في القرآن سراً آخر تلتقطه بعض القلوب لمجرد تلاوته».

ونحن نقول أيضاً ما قاله الأستاذ سيد رحمه الله: ليست هذه قاعدة، ولكن الأمر جدير بأن يكون موضع دراسة أو أن نقف عنده على أقل تقدير. مع التأكيد في هذا السياق على أن القرآن العام والخالد، أي الذي نزل لجميع الأمم ويُخاطَب به الناس إلى يوم الدين، لا يتصور -من أجل تأكيد عمومه وخلود رسالته- أن ينزل بجميع اللغات، ما كان منها وقت التنزيل، وما سيكون منها بعد ذلك، لأن هذا لا يتساوق وحركة الحياة، أو طبيعة التكليف واختيار الإيمان، وإذا كان القرآن نازلاً بلغةٍ واحدة فلا توجد لغة -كما قلنا- أولى من اللغة العربية لينزل بها بوصفها لغة إنسانية في المقام الأول، فوق ما انطوت عليه أو اتّسعت له من أسباب البيان الذي يمكن أن يكون على نحوٍ من الأنحاء في متناول سائر أرباب اللغات الأخرى.

وعلى أية حال، فنحن لا نستطيع أن نغفل الإشارة إلى أن نزول القرآن بلغة العرب، وارتباط الإعجاز بها على هذا النحو يتضمن دعوة الداخلين في الإسلام إلى إتقان العربية أو تعريب اللسان، أو إلى أن تعمّهم اللغة الأم أو اللغة المثال؛ وبخاصة إذا علمنا أن اطلاعهم على آيات التحدي يأتي تالياً -في الأعم الأغلب إن لم يكن في جميع

(١) في ظلال القرآن (٣/١٧٨٦)، وقال الإمام ابن القيم وهو يستعرض آراء العلماء في إعجاز القرآن: «ومنهم من قال: إعجازه بما يقع في النفوس منه عند تلاوته من الروعة، وما يملأ القلوب عند سماعه من الهيبة، وما يلحقها من الخشية، سواء كانت فاهمة لمعانيه أو غير فاهمة، أو عالمة بما يحتويه أو غير عالمة، كافرة بما جاء به أو مؤمنة» قال: «وروي أن نصرانياً مرّ بقارئ فوقف يبكي، فقيل له: مم بكاؤك؟ فقال: الشجا والنظم» الفوائد المشوقة ص٣٤١. ولا ندري إن كان هذا القول يشمل غير العرب كذلك.

الحالات- لدخولهم في الإسلام وليس سابقاً عليه، كما سنشرح ذلك في بحث قادم إن شاء الله.

ونكتفي في ختام هذا البحث بالقول: إن الحديث أو التساؤل عن كيفية دعوة غير العرب إلى الدخول في الإسلام، في الوقت الذي لا يمكنهم أن يقفوا على الإعجاز -البياني العربي- يقصد به غالباً: حملنا على التسليم بالإعجاز المتصل (بمضامين) القرآن وبما يسمّى في هذه الأيام: الإعجاز العلمي. وسوف نخصص البحث القادم لهذه القضية بشيء من التوسع والتعمق أو محاولة التعمق في وقت واحد. وبحسبنا هنا أن نشير إلى أن هذا يعيدنا إلى حيث بدأنا في هذا البحث. حين قلنا إن أدلة الأنبياء السابقين أو براهينهم على نبوتهم سميت في القرآن الكريم(آيات) ولم تسمَّ معجزات. إن مثل هذه الآيات -بغض النظر عن الإعجاز الذي ارتبط بالتحدي- موجود في القرآن نفسه، ولذلك فهي خالدة وممتدة أيضاً. وهذا ما يميزها عن (آيات) الأنبياء السابقين. ولم يقل أحد إن الأمم الأخرى من اليهود والنصارى وغيرهم ممن درجوا على إيمانهم اعتماداً على مثل هذه (الآيات) لا يمكن دعوتهم إلى الإيمان بنحوها! بل إنهم من خلال القرآن نفسه أو من خلال منهجه ومضامينه مَدعوُّون إلى الإيمان بنحوها أو بأخطر منها وأعظم شأناً.

وإن كان مما يسترعي النظر حقاً، بل يحتاج إلى وقفة تأمل وتحليل أن يطلب العرب أنفسهم الذين شهدوا التنزيل وعاصروه .. ولكنهم تحيّروا وتخبّطوا في أسباب الكفر والجحود والتكذيب .. أن يطلبوا (آية) من جنس آيات الأنبياء السابقين لا (إعجازاً) يبهرهم وينسب إلى (لغتهم) قبل أن يخلّدها أبد الدهر ، ويحدث لهم هم في العالمين ذكرا !!.

وقد كانت هذه النقطة أحد محاور سورة الأنبياء ؛ قال تعالى -في الآية الخامسة- ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ وقال تعالى-في الآية العاشرة: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقال تعالى في الآية الخمسين: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ

مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾؟

وأخيراً جاء في الآية ١٠٧ قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

لقد طلبوا (آية) كتلك التي جاء بها الأنبياء السابقون، فجاءهم الرد بالكتاب الذي أنزل إليهم[1]، والذي سيكون فيه عزهم وشرفهم ومجدهم! فأي عاقل ينكر هذا ويأباه ويطلب ما هو دونه في حكم العقل وسجّل الخلو؟ .. مع التأكيد مرة أخرى على الطابع الإنساني العام والخالد لرسالة القرآن الذي نزل بلسانٍ عربيٍ مبينٍ. أو الذي يسّره الله تعالى بلسان نبيّه الكريم، فخاطبه في السورة المذكورة بقوله عزّ من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ صدق الله العظيم.

---

(١) وانظر الآيتين ٥٠ -٥١ من سورة العنكبوت.

المصادر والمراجع

١ - إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني: تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر رحمه الله. دار المعارف- القاهرة١٩٧٧م

٢ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي. المكتبة التجارية الكبرى -الطبعة الثامنة- القاهرة ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م.

٣ - تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) طبعة الخشاب، مصورة دار المعرفة- بيروت ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م.

٤ - الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن ، للدكتور عدنان محمد زرزور، مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى، بيروت ١٣٩١هـ ١٩٧١م.

٥ - حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين، للشيخ يوسف بن اسماعيل النبهاني، مكتبة الجندي- القاهرة ١٣٩١هـ ١٩٧٢م.

٦ - شرح السنوسية الكبرى(عمدة أهل التوفيق والتسديد شرح عقيدة أهل التوحيد) للإمام أبي عبدالله السنوسي ، تحقيق د.عبدالفتاح عبدالله بركه. الطبعة الأولى -دار القلم بالكويت ١٤٠٢هـ.

٧ - الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. مطبعة عيسى البابي الحلبي- القاهرة١٩٧١م.

٨ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام يحيى بن حمزة العلوي اليمني، مطبعة المقتطف بمصر ١٣٣٢هـ ١٩١٤م.

٩ - الظاهرة القرآنية للأستاذ مالك بن نبي (مع مقدمة الأستاذ محمود شاكر) دار الفكر بدمشق ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

١٠- الفلسفة القرآنية للأستاذ عباس محمود العقاد (الجزء ٧ من المجموعة الكاملة) دار الكتاب اللبناني - بيروت.

١١- الفهرست لابن النديم، تحقيق د. ناهد عباس عثمان. دار قطري بن الفجاءة -قطر ١٩٨٥م.

١٢- الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن لابن قيم الجوزية. دار ومكتبة الهلال - بيروت. بدون تاريخ.

١٣- في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب رحمه الله. دار الشروق -الطبعة الرابعة- بيروت ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.
١٤- الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي. مصطفى البابي الحلبي - الطبعة الأخيرة!! مصر بدون تاريخ.
١٥- قصة الفلسفة الحديثة تاليف أحمد أمين وزكي نجيب محمود - مكتبة النهضة المصرية- الطبعة السادسة، القاهرة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
١٦- مباحث في علوم القرآن للأستاذ الدكتور صبحي الصالح -مطبعة جامعة دمشق- الطبعة الثانية .
١٧- المذهب في فلسفة برجسون للدكتور مراد وهبه. دار المعارف بمصر ١٩٦٠م.
١٨- مفتاح العلوم للسكاكي. تحقيق الدكتور نعيم زرزور، دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى- بيروت ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
١٩- مقدمة العلامة ابن خلدون - طبعة دار الشعب - القاهرة.
٢٠- مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني. طبع عيسى البابي الحلبي - مصر ١٩٨٠م.
٢١- المواقف في علم الكلام لعضد الدين الإيجي. عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.
٢٢- النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن الكريم) للأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله، دار القلم - الكويت- الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

***